الصباح الإسلامية
AL-SABAH
www.alsabahpress.com Alsabah Media
No. 4602 | الإثنين | غرة ذي الحجة 1444 هـ | 19 يونيو 2023 م | السنة السادسة عشرة

اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً

البذل الواسع عن إخلاص ورحمة يغسل الذنوب ويمسح الخطايا

الإسلام جعل الأموال المستخفية في الخزائن، المختبئ فيها حق المسكين والبائس، شرا جسيما على صاحبها في الدنيا والآخرة، إنها أشبه شيء بالثعابين الكامنة في جحورها كأنها رصيد الأذى للناس، بل إن الإسلام أبان أنها تتحول فعلا إلى حيات قد أمرقت واحتدفت أنيابها، تطارد صاحبها لتقضم يده التي غلها الشح. «..ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه فاتحا فاه، فإذا فر منه يناديه، خذ كنزك الذي خبأت، فأنا عنه غني فإذا رأى أنه لابد له منه سلك يده في فمه، فيقضمها قضم الفحل».

وقد أخذ الإسلام يفهم الإنسان بالحسنى والإقناع أن محبته الشديدة لما له قد تورده المتالف، وأنه لو فكر حقيقة ما يملك وفي عاقبته معه لرأى السماحة أفضل من الأثرة، والعطاء خيرا من البخل «يقول العبد: مالي مالي: وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى. وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس». وعجيب أن يشقى امرؤ في جمع ما يتركه لغيره، وإذا لم يستفد المسلم من ماله فيما يصلح معاشه ويحفظ معاده فمم يستفيد بعد؟. وقد أماط الرسول اللثام عن هذه الحقيقة فقال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر». ومع ذلك، فإن النبي عندما أعلن عن جمع الزكاة تحسس برفق مشاعر الحرص في الناس وتلطف في علاجها. فقال: «سيأتيكم ركيب مبغضون يعني جامعي الزكاة فإذا جاءوكم فرحبوا بهم وخلوا بينهم وبين ما يبتغون فإن عدلوا فلأنفسهم وإن ظلموا فعليهم، وأرضوهم فإن تمام زكاتكم، رضاهم وليدعوا لكم».

ونجاح الإنسان في إزاحة عوائق البخل التي تعترض مشاعر الخير فيه هو في نظر الإسلام فضيلة كاملة، إذ المعروف أن المرء يشتد أمله في الحياة، وتتوثق أواصره بها عندما يكون صحيح البدن، طامحا في المستقبل، يقتصد في نفقته ويضاعف في ثروته، ليطمئن إلى غد أرغد له ولذريته، فإذا غالب هذه العوامل كلها وبسط كفه في ماله، ينفق عن سعة ولا يخشى إقلالا ولا ضياعا، فهو يفعل الخير العظيم. جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان كذا.

والبذل الواسع عن إخلاص ورحمة يغسل الذنوب ويمسح الخطايا: قال الله تعالى: «إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير». وقال: «إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم، عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم». فإذا انزلق المسلم إلى ذنب وشعر بأنه باعد بينه وبين ربه، فإن الطهور الذي يعيد إليه نقاءه ويرد إليه ضياءه ويلفه في ستار الغفران والرضا، أن يجنح إلى مال عزيز عليه فينخلع عنه للفقراء والمساكين زلفى يتقرب بها إلى أرحم الراحمين. عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تعبد عابد من بني إسرائيل فعبد الله في صومعة ستين عاما، فأمطرت الأرض فاخضرت، فأشرف الراهب من صومعته، فقال: لو نزلت فذكرت الله فازددت خيرا!! فنزل ومعه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها، ثم أغمى عليه . فنزل الغدير يستحم، فجاءه سائل، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين، ثم مات .. فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته، فرجحت حسناته، فغفر له . ومن أروع الأمثلة في بيان ما للعطاء والجود من أثر في الغفران والنجاة، ما أوحى الله به إلى نبيه يحيى ليعلمه أمته: «وآمركم بالصدقة».

ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقربوه ليضربوا عنقه، فجعل يقول: هل لكم أن أفدي نفسي منكم ؟ وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه «إن الصدقات التي نبذلها، على اختلاف صنوفها، من زكاة أو هبة أو نفقة أو غير ذلك جليلة الخطر في معاش الإنسان ومعاده، وهي في أساسها تضعف أو تقوي صلة المسلم بدينه، ولن يحرم المرء كبخله في الحقوق وسوء ظنه بالله. ولن يسبق به كجوده وثقته في فضل الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر». وقال: «حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع».

وما من شيء أشق على الشيطان، وأبطل لكيده، وأقلت لوساوسه من إخراج الصدقات، ولذلك يقذف في النفوس الوهن حتى يثبطها عن البذل، ويعلقها بالحطام الفاني. «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم». وفي الحديث: «لا يخرج رجل شيئا من الصدقة، حتى يفك عنها لحى سبعين شيطانا، كلهم عنها». إن الإنسان عندما يقسم راتبه أو دخله على مصارفه ومطالبه يجعل جزءا قل أو كثر للمستهلكات المعدومة، وينظر إليه على أنه مغارم لازمة وقد نبه الإسلام إلى أن المرء قد يسوغ له أن يعد طعامه وشرابه ودواءه في هذا الجزء المفقود ..! أما ما أنفقه في سبيل الله فلا، روي عن عائشة أنهم ذبحوا شاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما بقي منها؟ قالت ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلها إلا كتفها». وهذا مصداق قوله عز وجل: «ما عندكم ينفد وما عند الله باق». ويروي الرسول عن ربه هذا الحديث: «يا ابن آدم أفرغ من كنزك وعندي لا حرق، ولا غرق ولا سرق، أوفيكه أحوج ما تكون إليه».

وقد يسبق الظن إلى أن السخاء ينقص الثروة ويقرب من الفقر ويسلب الرجل نعمة الطمأنينة في ظل ماله الممدود، وخيره المشهود، وهذا الظن من وساوس الشيطان التي يلقيها في نفوس القاترين الأدنياء . والحق أن الكرم طريق السعة، وأن السخاء سبب النماء، وأن الذي يجعل يديه ممرا لعطاء الله يظل مبسوط اليد بالنعمة، مكفول اليوم والغد بالغدق الدائم من رحمة الله وكرمه . وفي الحديث: «ثلاثة أقسم عليهن .. ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها، إلا زاده الله بها عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»، فليستمسك الإنسان بعُرى السماحة، وليسارع إلى سداد ما يلقاه من ثغرات، ولينظر إلى المحتاجين الذين يقصدونه نظرته إلى أسباب التجارة الرابحة. إن بذل اليوم القليل فسيرجع غدا أو بعد غد بالكثير.. وقد اعتبر الله العطاء الجميل قرضا حسنا، لا يرده لصاحبه مثلا أو مثلين بل يرده أضعافا مضاعفة، وأغرى العبد بالإنفاق، فكشف له أن نفقته على غيره وسيلة جُلى ليتولى الله الإغداق عليه من خزائنه التي لا يلحقها نفاد. وفي الحديث عن الله تبارك وتعالى: «يا عبدي أنفق أنفق عليك، يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما بيده، وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع» . وقال عز وجل: «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين». إن المنفقين هم على السراء والضراء بعين الله، وفي كنفه، تصلى عليهم الملائكة ويرتقب لهم المزيد، أما الكانزون فلا يتوقع لهم إلا الضياع وهل يخلدون مع المال أو يخلد معهم المال؟ إن المال عارية انتقل إلينا من غيرنا، وسينتقل منا إلى غيرنا، فلم التشبث به والتفاني فيه؟ إن كل ما يتعلق البشر به من حطام الدنيا سوف يدعونه لوارث السموات والأرض، وسينقلون إلى ربهم عراة، لا مال ولا جاه كما خلقوا أول مرة، وسيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة فلا غرو إذا نقم الملأ الأعلى على من ينسى هذه الحقائق، وينطلق في ربوع الأرض، لا هم له إلا جمع ما يضره، ونسيان ما يفيده. قال رسول الله: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا».

الآيات هدفها بناء أمة سليمة الأعصاب مهذبة المشاعر طاهرة القلوب نظيفة التصورات

آداب الاستئذان وملكية الله للكون

إن الإسلام منهاج حياة كامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها جميعا، ويتجه بها إلى الله في النهاية.

وهذه السورة نموذج من ذلك التنسيق حيث تضمنت بعض الحدود إلى جانب الاستئذان على البيوت وإلى جانبها جولة ضخمة في مجالي الوجود ثم عاد السياق يتحدث عن حسن أدب المسلمين في التحاكم إلى الله ورسوله وسوء أدب المنافقين إلى جانب وعد الله الحق للمؤمنين بالاستخلاف والأمن والتمكين وها هو ذا في هذا الدرس يعود إلى آداب الاستئذان في داخل البيوت، إلى جانب الاستئذان من مجلس رسول الله [ص] وينظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء، إلى جانب الأدب الواجب في خطاب الرسول ودعائه..فكلها آداب تأخذ بها الجماعة المسلمة وتنتظم بها علاقاتها والقرآن يربيها في مجالات الحياة الكبيرة والصغيرة على السواء.

الاستئذان داخل البيوت

لقد سبقت في السورة أحكام الاستئذان على البيوت. وهنا أحكام الاستئذان في داخل البيوت:

فالخدم من الرقيق، والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان إلا في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة، فهم يستأذنون فيها هذه الأوقات هي: الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس في ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج ووقت الظهيرة عند القيلولة، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة. وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل.

وسماها «عورات» لانكشاف العورات فيها وفي هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم، وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر. بينما يقرر النفسيون اليوم – بعد تقدم العلوم النفسية – أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها.

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب، وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب، سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلوب، نظيفة التصورات.

ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها لأنها مظنة انكشاف العورات ولا يجعل استئذان الخدم والصغار في كل حين منعا للحرج فهم كثيرو الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة: (طوافون عليكم بعضكم على بعض).. وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار.

فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ، فإنهم يدخلون في حكم الأجانب، الذين يجب أن يستأذنوا في كل وقت، حسب النص العام، الذي مضت به آية الاستئذان. ويعقب على الآية بقوله: (والله عليم حكيم) لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر، وما يصلحها من الآداب، ومقام حكمته كذلك في علاج النفوس والقلوب.

الرخصة للقواعد من النساء

ولقد سبق الأمر كذلك بإخفاء زينة النساء منعا لإثارة الفتن والشهوات. فعاد هنا يستثني من النساء القواعد:

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)

اللواتي فرغت نفوسهن من الرغبة في معاشرة الرجال، وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات:

فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية، على ألا تنكشف عوراتهن ولا يكشفن عن زينة وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة. وسمي هذا استعفافا. أي طلبا للعفة وإيثارا لها، لما بين التبرج والفتنة من صلة، وبين التحجب والعفة من صلة.. وذلك حسب نظرية الإسلام في أن خير سبل العفة تقليل فرص الغواية، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس.

(والله سميع عليم)..يسمع ويعلم، ويطلع على ما يقوله اللسان، وما يوسوس في الجنان والأمر هنا أمر نية وحساسية في الضمير.

تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء

ثم يمضي في تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء: ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم، أو بيوت آبائكم، أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت اخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت أعمامكم، أو بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم، أو بيوت خالاتكم، أو ما ملكتم مفاتحه، أو صديقكم. ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا. فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم، تحية من عند الله مباركة طيبة. كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون.

روى أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة – دون استئذان – ويستصحبون معهم العمي والعرج والمرضى ليطعموهم.. الفقراء منهم.. فتحرجوا أن يطعموا وتحرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من أصحاب البيوت أو إذن. ذلك حين نزلت: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) فقد كانت حساسيتهم مرهفة فكانوا يحذرون دائما أن يقعوا فيما نهى الله عنه، ويتحرجون أن يلموا بالمحظور ولو من بعيد فأنزل الله هذه الآية، ترفع الحرج عن الأعمى والمريض والأعرج، وعن القريب أن يأكل من بيت قريبه وأن يصحب معه أمثال هؤلاء المحاويج. وذلك محمول على أن صاحب البيت لا يكره هذا ولا يتضرر به. استنادا إلى القواعد العامة في أنه «لا ضرر ولا ضرار» وإلى أنه «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس».

ولآن الآية آية تشريع، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظي والترتيب الموضوعي، والصياغة التي لا تدع مجالا للشك والغموض كما نلمح فيها ترتيب القرابات فهي تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم بل تقول (من بيوتكم) فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج، فبيت الابن بيت لأبيه، وبيت الزوج بيت لزوجته، وتليها بيوت الآباء، فبيوت الأمهات فبيوت الإخوة، فبيوت الأخوات فبيوت الأعمام، فبيوت العمات، فبيوت الأخوال، فبيوت الخالات..ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه ويلحق بها بيوت الأصدقاء ليلحق صلتهم بصلة القرابة عند عدم التأذي والضرر فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان.

«اعقلها وتوكل»

تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع سنة الأخذ بالأسباب

من السنن الربانية التي تعامل معها النبي صلى الله عليه وسلم سنة الأخذ بالأسباب، والأسباب جمع سبب، وهو كل شيء توصل به إلى غيره، وسنة الأخذ بالأسباب مقررة في كون الله تعالى، بصورة واضحة، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته، وأودعه من القوانين والسنن، ما يضمن استقراره واستمراره، وجعل المسببات مرتبطة بالأسباب بعد إرادته تعالى، فأرسى الأرض بالجبال، وأنبت الزرع بالماء... وغير ذلك. ولو شاء الله رب العالمين، لجعل كل هذه الأشياء وغيرها –بقدرته المطلقة– غير محتاجة إلى سبب، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى وحكمته، الذي يريد أن يوجه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السنة ليستقيم سير الحياة على النحو الذي يريده سبحانه، وإذا كانت سنة الأخذ بالأسباب مبرزة في كون الله تعالى بصورة واضحة، فإنها كذلك مقررة في كتاب الله تعالى، ولقد وجه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السنة في كل شؤونهم الدنيوية، والأخروية سواء، قال تعالى (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [التوبة: 105].

وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [الملك: 15].

وَلَقَد أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى طلب من السيدة مريم أن تباشر الأسباب وهي في أشد حالات ضعفها قال تعالى: (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) [مَرْيَم: 25].

وهكذا يؤكد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كل الأمور والأحوال. ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوعى الناس بهذه السنة الربانية، فكان –وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية– يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب، ولا يترك شيئا يسيرًا جزافا وقد لمسنا ذلك فيما مضى وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى.

وكان عليه الصلاة والسلام يوجه أصحابه دائمًا إلى مراعاة هذه السنة الربانية في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء.

التوكل على الله والأخذ بالأسباب

التوكل على الله تعالى لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتوكل عليها.

إن الذي ينشئ النتائج كما ينشئ الأسباب هو قدر الله، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن، اتخاذ السبب عبادة بالطاعة، وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله؛ وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته، لينال ثواب طاعة الله في استيفائها. ولقد قرر النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة ضرورة الأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله تعالى، كما نبه عليه السلام على عدم تعارضهما. يروي أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا وقف بناقته على باب المسجد وهم بالدخول، فقال يا رسول الله، أرسل راحلتي وأتوكل؟– وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل على الله تعالى، فوجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن مباشرة الأسباب أمر مطلوب ولا ينافي بحال من الأحوال التوكل على الله تعالى ما صدقت النية في الأخذ بالأسباب– فقال له صلى الله عليه وسلم: «بل قيدها وتوكل». وهذا الحديث من الأحاديث التي تبين أنه لا تعارض بين التوكل والأخذ بالأسباب، بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب.